ΠΑΠΑΣ ΑΒΒΑ ΔΙΑΚΑΡΙ

القديس

مكاريوس الاسكندري

ΠΙΡΕΜΡΑΚΟΤ

« بسم الآب والابن والروح القدس اله واحد آمين »

حضرة صاحب الغبطة أبينا الطوباوى المكرم
الأنبا كيرلس السادس بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة

نقلت هذه السيرة عن القبطية لأحد الأعلام القدماء ، وقام العالم الأثرى « E . Amélineau » بنقل هذه السيرة من اللغة القبطية ، ووجدت ناقصة من أولها وبعد البحث فيما ألفه العلماء الاجانب فى هذا الشأن عن هذه السيرة وجدنا للعلامة Cheneau فى كتابه « Les Saints d' Egypte » ، وفى دائرة المعارف الفرنسية الكبيرة ما يكمل ما نقص وينظم ما تفرق من أجزائها فنقلناه عن الفرنسية فجاءت السيرة وافية شاملة - وفى هذه السيرة الكثير من أقوال القديس وصفاته وشخصيته وتعاليمه مما يظهر بجلاء زعامته القوية فى تلك العصور الخالية .

نشأ فى الاسكندرية من أبوين فقيرين ، ولما شب اشتغل خبازاً يصنع الفطائر ، ولما اعتمد رغب عن عيشة العالم ومال إلى النسك والعبادة وترهب بوادى النطرون - وكان عمره حوالى الاربعين عاما - وترى فى السيرة كيف كان يقمع جسده للسير بالنفس إلى مدارج الكمال ، وتقشفه فى المأكل والملبس والنوم وكانت الغيرة تأكل قلبه فما كان يسمع أن أحداً من تلاميذه تمم فضيلة ما إلا أكلها حتى أتقن الفضائل جميعها ، فكان خير قدوة

ومثال فى جذب تلاميذه إلى الجهاد والسهر والتعب والعمل حتى صار مناراً للدين المسيحى فى القرن الرابع . وفى السيرة تفصيل خبر قدومه إلى مجمع القديس باخوميوس كأحد العامة يرغب فى الرهبنة - وكيف عرفه القديس بإرشاد بصيرته بعد أن طلب من الله أن يكشف له عن القديس مكاريوس . وإذ شاهد بعينى قلبه منزلته فى القداسة استقبله بالحفاوة والتكريم.

انطلق القديس إلى جبال نتريا وهناك ذاع صيته ولمع نجمه ووصل خبره إلى البطريرك الاسكندرى فرسمه كاهناً وأشرقت أنوار فضائله .

كان ممتازاً فى طهارته فقد ذكر عنه أنه ما كان يدخل الهيكل المقدس لتقديس الأسرار المقدسة حتى كان يعاين الهيكل مملوءاً بالملائكة القديسين فينتابه خوف ورهبة شديدة .

وذكر تلميذه ما نصه : « قال لى أبى (القديس مكاريوس)، لايمر سبت أو أحد دون أن أرى ملاك المذبح بالقرب من المكان الذى يكون أمامى حينما أقدم الذبيحة .. ثم انه إنفرد فى أخوف برارى ليبيا التى اطلق عليها فيما بعد اسم برية القلالى نظراً لكثرة القلالى حيث تكاثر تلاميذه وبنى كل منهم لنفسه قلايته وانطلق فى آفاق النعمة وأشرقت شمس مواهبه فى البرية على أتباعه من

المتوحدين حتى بلغوا خمسة آلاف متوحد ينهلون من فضيلته وقداسته وحكمته .

وقد وردت فى السيرة بعض العجائب ذكرناها كما جاءت فى الأصل وراعينا فى الترجمة المحافظه على أصل النص ولم نتمسك بحرفية العبارات فى أجزاء قليلة لتوفر السلاسة والسهولة بالعربية.

وجاء فى دائرة المعارف الفرنسية الكبيرة ص ٨٥٥ عنه : « أنه ولد بالاسكندرية حوالى عام ٣٠٦ ومات فى عام ٣٩٤ أو ٤٠٥ [1] . وعيده فى ٢ يناير فى الكنيسة اللاتينية ويوم ١٩ فى الكنيسة اليونانية...ومثل القديس مكاريوس المصرى رسم أيضاً قسيساً للمتوحدين وكان أبو الرهبنة فى نتريا وكان تلاميذه يعيشون فى أكواخ ويجتمعون فى كنيسة الدير يوم السبت والأحد، وكان فى الأبنية أو فى هذه المستعمرة ثمانية قسوس للخدمة والقيام بالوظائف الطقسية للمجموعة » .

ويقول المؤرخون أنه كان فى صحراء نتريا مئات من المتوحدين وكان كل راهب ملزما بسد حاجاته بعمله الخاص ، وفى المساء

(١) الأرجح أن تكون وفاته عام ٤٠٤ أو ٤٠٥ حيث يذكر لنا فى هذه السيرة أن عمر القديس كان مائة سنة - أيضا ذكر السنكسار أنه تنيح سنة ٤٠٤م عن مئة سنة .

كانوا يرتلون الالحان والمزامير وكانت قوانين الحياة صارمة جداً.
وكان يقوم بتدريس الاعمال اللاهوتية فطاحل علماء اللاهوت وأعلام الرهبنة وحق فى ذلك ما ذكره مؤلفا كتاب صحراء العرب والاديرة الشرقية ص٢٩ عما ورد فى دائرة المعارف للدين والاخلاق من أن العالم كله يدين لمصر بالرهبنة التى تخرج فيها الادباء والمبشرون والعلماء الذين أدوا للإنسانية خدمات لم تقم بها هيئة أخرى حتى وقتنا الحاضر.

ويذكر العالم المؤرخ الدكتور عزيز سوريال عطية صحيفتى ١٥٧، ١٥٨ من كتاب الرهبنة القبطية ما يأتى:

«منطقة جبل نتريا أو وادى النطرون كانت تعرف أيضاً باسم برية شيهيت التى هب إليها المتوحدون منذ أقدم العصور المسيحية فى القرنين الثانى والثالث، وتقع الآن إلى الغرب من منتصف الطريق الصحراوى الحديث بين مصر والاسكندرية تقريباً حيث يوجد على مقربة منها إلى اليوم دير البرموس الشهير من مؤسسات القرنين الرابع والخامس - ويروى الكاتب بلاديوس الذى زار هذه المنطقة سنة ٣٩١ م أنه وجد هناك خمسة آلاف راهب يعيشون مع بعضهم فى جماعات صغيرة غير سنمائة ناسك يعيشون فرادى داخل الصحراء.

وكانت هذه المنطقة تنقسم إلى ثلاثة مراكز رهبانية، أولها جبل نتريا وثانيها مستعمرة القلالى وثالثها الإسقيط على التوالى من الشمال إلى الجنوب منحرفة صوب الشرق قليلا. ويعزى الفضل فى تأسيس الاولى إلى أمون الذى نزح إلى تلك المنطقة حوالى سنة ٣٢٥ م بعد أن عاش ١٨ سنة فى منزل الزوجية بالاسكندرية. وقصة زواجه قسراً وإقناعه زوجته أن تحيا معه حياة التبتل والعبادة سراً طوال هذه الفترة مشهورة، أما المركز الثانى فقد نشأ حول القديس أنبا مقار الذى ولد بالاسكندرية فى القرن الرابع، ثم مال إلى النسك فأخذ يتوغل إلى أن استقر فى جهة القلالى وعرفت بهذا الاسم لان أتباعه تكاثروا حواليه وبنى كل منهم لنفسه قلايته ليتتلمذوا على يديه وقد اشتهر أبو مقار بسبقه المضطرد لغيره من النساك فى ضروب التقشف. ولما اكتظت القلالى بالرهبان حواليه، هجرها إلى المركز الثالث وهو الإسقيط وكان أشد وعورة من سابقيه وتبعه إلى هناك عدد محدود من تلاميذه المقربين له والمعجبين به[1]».

(١) ذكر كتاب الرهبنة القبطية ص ٥ أن منطقة القلالى تسمى أيضا منطقة سيليا وأن نتريا فقدت أهميتها وحلت محلها سيليا التى تدين فى شهرتها إلى مؤسسها أبا مقار الاسكندرى، وأن الثلاثة مراكز الديرية الرئيسية هى نتريا - سيليا (تبعد بحوالى ١٩ كيلو نتريا) الإسقيط.

فى هذه البرارى المخيفة القاحلة كان يعيش مئات الرهبان فى قلالى ضيقة متباعدة تباعداً لايسمح لهم بالتزاور ويتبعون نظاما فى المعيشة من أصعب النظم وأقساها كما كانوا يقومون بأنواع كثيرة من التقشفات الجسدية وكان رائدهم ومرشدهم الآب القديس مكاريوس الاسكندرى الذى كان يذهل رهبانه بما كان يأتيه من أعمال تقوية .

وهكذا كانت الرهبنة تسير فى القرون الأولى بارشاد دقيق - حيث لا رهبنة نافعة بدون إرشاد معلم مختبر .

وإن الكنيسة تكرم ذكرى القديس العظيم أبو مقـــار الاسكندرى وتذكره فى جميع القداسات وفى التسبحة إذ تذكر دوما (الثلاثة مقارات) لما له من عظيم الأثر فى الكنيسة - وفضلا عن ذلك هناك قطع لتمجيده فى عيد نياحته الذى يقع فى ٦ بشنس وورد ذكره فى السنكسار وتتلى سيرته يوم عيده .

ورغم أهمية أعمال القديس النسكية والروحية وأثرها فى الرياضيات الدينية، فإنه لم يظهر للآن كتاب شامل يترجم حياته فلذا آثرنا أن نخرج هذه الترجمة من المخطوطات القبطية التى طبعها العلامة E. Amélineau وترجمها إلى الفرنسية ونكمل ما نقص منها عن الفرنسية للعلامة « شينوده » .

والقديس مكاريوس الاسكندرى كما قلنا يذكر فى القداسات باستمرار وفى التسابيح وهو أحد الثلاثة مقارات القديسين . وقد يسمع الكثيرون اسمه ولكن لايعرفون عنه شيئاً، فى هذه الترجمة تجد الكشف عن شخصيته ومواهبه وعظيم قداسته ، كما يتبين ذلك للمطلع تفصيلا وبذلك يتصل المثقفون بأعلام تاريخنا ويعرفون قيمة تراثنا الروحى ويمجدون ذكرى هذا القديس الكريمة ونأمل ألا تغيب عنا ذكرى هذا القديس وأن تحصل الإفادة من تعاليمه ورسالته وأثره الخالد ويضىء نوره قدام الخاص والعام .

هذا وقد قامت لجنة مراجعة الكتب الدينية بالمقر البطريركى بالقاهرة مشكورة بمراجعة هذا الكتاب وأعيد فى ١٩٦١/٩/٥ بالموافقة على نشره وأن ينال مايستحقه من الذيوع تخليداً لذكرى صاحب الترجمة .

سبتمبر سنة ١٩٦١ — **يوسف حبيب**

نظراً لنفاد الطبعة الأولى من هذا الكتاب فقد رأينا إعادة طبعه طبعة فريدة ومنقحة وأدخلنا عليها تعديلات جوهرية.

يوسف جميل

١٩٧٠

ملاحظات على المخطوطة القبطية الناقصة التى نشرها العلامة E. Amélineau وترجمها للفرنسية فى كتابه:

" Histoire des Monastères de la Basse Egypte ".

يبدأ بقصص الجاموسة ، الضبعة ، الثعبان السام الذى لدغ القديس، ليديا المنوحدة ، زيارته للقديس باخوميوس، محاربات الشيطان له ، شفاء القس ، سرقة قلاية القديس ، زهد الشيخ وصلابة إرادته ، قصة الكأس ،قصة التمثيل وقصة نزول المطر، وهذه كلها نشرناها فى أماكنها المناسبة.

† † †

الفصل الأول

حياته الأولى وانطلاقه للصحراء

١ – نشأته

القديس مكاريوس الاسكندرى كان يشتغل بتجارة الحلوى وكان بحبلته محباً للناس ، وكان قصير القامة ، ليس له لحية وله شارب رفيع وحركات جذابة ولم ينقل لنا صاحبه بلاديوس[1] الذى كان تلميذه وأصبح كاتب تاريخه أى شىء أكثر من ذلك عن الأربعين سنة الأولى من حياته ، وكانت الحياة الحقيقية لأبطال القداسة لا تبتدىء إلا عند العماد. وكان مكاريوس فى نحو الأربعين من عمره[2] حينما تعمد.

(١) كان بلاديوس صديقا حميما للقديس مكاريوس الاسكندرى ومكث حوالى ثلاث سنوات فى صلات روحية وثيقة تعلم فيها الكثير عن الرهبنة المقدسة ، وكان شابا فى حوالى الثلاثين من عمره . وهو كاتب بستان الرهبان وأصله من غلاطية جاء إلى مصر سنة ٣٨٨ م وأقام حتى سنة ٣٩٩ م ، وعندما رجع إلى غلاطية كتب عن آباء البرية .

(٢) أن القديس لم ينتظم فى سلك الرهبنة فى سن مبكرة فقد كان عمره ٤٠ عاما وغيره كثيرون من الآباء مثل القديس أنبا مرقس تلميذه الذى سنأتى سيرته وكان عمره ٤١ عاما ، والقديس أنبا أرسانيوس الكبير (٤٠ عاما) ، القديس موسى الأسود والقديس أنبا بولا البسيط تلميذ =

٢ – عماده وانطلاقه الى الصحراء وبدء محاربات الشيطان له

بعد ذلك اتخذ قراره بترك كل شيء في هذا العالم ، وبسرعة وباشتياق وسرور استبدل حلاوة مهنته الأولى التي لا طعم لها بحلاوة خدمة الله التي لا ينطق بها ، وذهب إلى الصحراء المجاورة للاسكندرية إلى « سيليا » ، وكانت قفراً موحشاً ليس فيها طريق من أي نوع ولا أي أثر لكائنات حية ولم يكن بها ماء بل كان

= القديس انطونيوس وكان متقدما جداً في الأيام ... وهكذا لأن المحبة الصافية الطاهرة والرغبة القوية والاشتياق الحقيقي للعشرة الخالصة مع الرب يسوع هي التي تدفع الإنسان لهذا الطريق مهما تقدم في الأيام .

ومما لاشك فيه أن سير أمثال هؤلاء الرهبان نافعة جداً خصوصاً للذين خدموا العالم سنين طويلة فإنهم يتضجرون كثيراً – وأنهم بقوة الرب يسوع يستطيعون اللحاق بركب القديسين الكبار ، لا بل قد يتقدمون لدرجة كبيرة جداً مثل القديس مكاريوس صاحب هذه السيرة والقديس أرسانيوس الكبير الذي وصل إلى درجة عالية في التوحد وجاهد جهاداً عنيفاً . . .

نعم قد يرضى أمثال هؤلاء الرهبان الله أكثر من الذين سلكوا الرهبنة في سن مبكر – تماما كما يرضى الرب الذين هم في التوبة أكثر من القديسين، كما ذكر في تاريخ القديسة مريم المصرية التائبة أنها أرضت الرب في توبتها أكثر مما يرضيه القديسون في حياتهم لأن حياتها كانت حياة إنسحاق كامل متواصل .

كأي منخفض في الأرض من هنا أو هناك ، يستبقي القليل من الماء وكانت هذه المياة ملحة وكريهة وهذا المكان الذي لا يمكن السكنى به كان يمتد بين « نتريا » و « الإسقيط » ، وكان يبعد عن الأول بحوالي ١٥ كيلو مترا على مسيرة يوم وليلة من التل الذي كان يحتوي وحده في آخر القرن الرابع على خمسين ديرا وما يزيد عن خمسة آلاف راهب. وكان بينه وبين الإسقيط (١١٩ كيلومتر) قفر شاسع يمتد بين مصر وليبيا وكان المصريون في لغتهم يسمونه شيهيت[1] بمعنى ميزان القلب ، أما سيليا فكانت تدين باسمها إلى الصوامع الكثيرة التي كانت مغائر وتلال نتريا [2] تزدحم بها وهاجر ساكنوها قليلا قليلا إلى الوادي المجاور ، هناك ذهب القديس مكاريوس بصعوبة عن طريق الصحراء ، وكانت تهاجمه أحياناً تجارب عنيفة ، وذات يوم ظهر له الشيطان ، وكان يعاني من الجوع ويتألم من العطش ، وينهك التعب قواه ، فقال له المخاطب الجهنمي في لهجة عتاب لطيف ، « لماذا لا تستعمل القوة التي تمتلكها لكي توفر مؤونة رخيصة وتواصل طريقك في حالة حسنة للغاية ؟ فرد القديس مكاريوس ، قوتي في الرب وله كل

(١) شيهيت يكتبها البعض خطأ شيهات .

(٢) تسمى اليوم جبل برنوج .

حمدى . أما أنت فاذهب ولا تحضر لتجرب خادم من خدام الله، حينئذ أقام الشيطان أمام عينيه جملا عليه بردعة فاخرة ، وكان يحمل حملا ضخما من الاغذية، وكان يبدو عليه أنه يتجول بدون هدف . وجاء وركع أمام القديس وكأنه يلتمس منه أن يخفف عنه حمله ، أما القديس مكاريوس فقد أشتبه فى وجود عمل خيالى من أعمال روح الشر وشرع فى الصلاة ، وفجأة انشقت الأرض وابتلعت المؤونة والدابة .

٣ – محاربة الشياطين له

١ – فى مقبرة الوثنيين

أراد مرة أن يذهب إلى مقبرة المنجمين جانس وجامبروس Jannes et Jambres سحرة مصر ، حتى يعرف أى نوع من الشياطين كان هناك ، وكان يقال أنهم كانوا يجتمعون هناك بعدد وفير، وكان السحرة أقوياء بفرعون، وكان هذان المنجمان الشهيران فيما مضى قد قاوما موسى وحاولا بسحرهما أن يقلدا العجائب التى كان يعملها بقوة الله لكى يحمل الملك مفتاح الثالث على خروج الشعب الاسرائيلى . وفى حياتهما كانا قد شيدا قبراً عظيماً مبنياً بحجارة متقوعة قطعاً عجيباً ، وكان القبر يحتوى على كنوز كثيرة وكانت تحيط به حدائق فاخرة بها الأشجار الوارفة الظلال تشع رطوبة لذيذة ، وكان بها بئر عميقة ينبع منها ماء سلسبيل ، وكانت فكرتهم ، وهى التى كانت سائدة فى كل مصر فى ذلك الوقت ، هى أنه بعد الموت كانت أرواحهم ترجع إلى هناك لتتمتع بلذات الفردوس . ولما كان يجهل الطريق الموصل إلى هذا القبر فى داخل الحديقة كان مقاريوس يرشد بالكواكب ويشبه فى هذا البحارة الذين يجوبون البحار، وقد عبر هكذا الصحراء القفراء الشاسعة، فقط لكى يسهل عودته كان يضع قصبات على طول الطريق واحدة عند كل ميل . وبعد تسعة أيام طويلة سيراً على الأقدام وصل أخيراً بالقرب من الحديقة المدهشة . وقبل أن يدخل أراد أن يستريح قليلا ووجد شجرة جميلة لها أوراق رقيقة وكلها مغطاة بالورود فاقترب منها ليستريح تحت فروعها الكثيفة واستلقى على الأرض ولم يلبث أن نام نوماً عميقاً وكانت مجموعات العصافير المختبئة تحت الأوراق ترسل نغماتها البهيجة فى حرارة الظهيرة وكأنها تدعوه للنعاس . وأثناء هذا كان الشيطان يهدم كل عمل القديس ويلاشى احتياطاته، وكان يرفع القصبات علامات العودة وفى منتهى التهكم كان يضعها حزما كبيرة عند مخدع القديس ، ولا يمكن وصف دهشة القديس مكاريوس عند استيقاظه فى نسيم المساء الرطب . لكنه كرجل إيمان فهم سريعا ، لقد أراد عدوه

اللدود أن يزأر به ، ولكنه لم ير فى هذا المكر الجهنمى غير يد الله الذى يدعوه لكى تكون له أكثر ثقة فى عنايته مما فى قصبات ضعيفة ، فقام حينئذ واقترب من المبنى ، فهب أكثر من سبعين شيطاناً فى أشكال مختلفة بشعة لاستقباله ، وكان بعضهم يصرخ صرخات حادة ، والآخرون يرقصون رقصات جنونية ، هؤلاء يصرون بأسنانهم وهؤلاء يطيرون مثل الغربان ، واسئلة استهجان كانت تتقابل فى الهواء : « ماذا تريد أيها الراهب المغرور ؟ ماذا جئت لتبحث عنه هنا ؟ هل دخلنا جسد أحد رهبانك ؟ اذهب ليس شىء مشترك بيننا . لماذا تتعدى على ملجأنا ؟ ان سكان هذا المكان قد أعطـــونا ملكيته ولا يحق لك أن تبقى هنا » ، وكان مقاريوس يقول : دعونى أرى ، لن أفعل سوى أن أدخـــل ثم أخرج ، لا أريد سوى أن ألقى نظرة ، نظرة واحـــدة ، ثم انسحب سريعاً ، فقال أحد الارواح الشريرة : « هل تحلف على ضميرك انك لن تبقى هنا » ؟ « سوف أفعل كما قلت لكم » ، فاختفت الشياطين . ودخل القديس مقاريوس القبر فى داخل الحديقة وكأنها جنة حقيقية . وتظاهر شيطان كان مختبئاً فى حفرة بالهجوم عليه وبيده حربة . حينئذ قال القديس : تعال إلىّ بسلاح ، ماذا يهم ؟ أنا سوف أتقدم بالرغم منك باسم رب القوات ، قال هذا

وأكل نزهته بهدوء واستطلع كل الحديقة وزار القبر بتدقيق - وكان هناك جردل نحاس مربوط بسلاسل على حافة البئر وبرتقال قد جف من الشمس وقرابين كثيرة على القبر الشهير وارتبط القديس مكاريوس بكلمته ولم يتأخر .

ب - عناية الله بالقديس، وقصة ظهور قطيع الجاموس

وفى الغد عند الفجر اتخذ طريق صومعته وكانت العودة مؤلمة ، وزاد الوقت المقرر بنسبة الضعف ، ولم يكف الخبز ولا الماء وكان القديس على وشك الهلاك حينما أعانته العناية الإلهية التى كانت تجربه تجربة قاسية ربما تأديباً له ، وكان قطيع جاموس كبير يمر بالصحـــراء وفجأة تركت القطيع انثى يتبعها صغيرها وجرت نحوه وفى نفس الوقت سمع صوت « يامقاريوس ، اقترب من الحيوان واحلبه واشرب اللبن » - وترك الحيوان نفسه مطيعاً ثم تبع القديس لغاية صومعته ، وكان يحتفظ له باللبن مفضلا إياه على الحيوان الصغير[1] .

---

(١) ذكر « اميلينو » فى أول سيرة القديس مكاريوس الاسكندرى أن الجاموسة (الجاموسة) كان يعطيه كل يوم لبنا لما أن قرب من نهاية مسيرة يوم ...

وقد ابتدأت السيرة فى النص القبطى بما ترجمته :

أما رواية القديس الشائقة عن رحلته فقد حركت كثيراً من شباب سيليا ورغبوا بطبيعة الحال فى محاكاة الآب والذهاب مثله لمجابهة الشيطان ، أما الشيوخ فخشوا عليهم من التجـــارب العديدة وأقنعوهم بعدم الذهاب.

٥ – خيالات الشياطين

عاد الشيطان ثانية بعد وقت قليل... فى الليل سمع طرقا على قلايته : « اسرع يا مقاريوس وتعال إلى الكنيسة حيث يصلى الإخوة فعرف الآب سريعا هذا الاختراع الجديد من اختراعات الشيطان « يا كذاب يا لص ! أية علاقة يمكن أن تكون بين بجمع القديسين وبينك » . . . أقول لك تعال وسوف ترى عملى» فذهب مقاريوس وبعد أن صلى إلى الله أن يغير قلبه رأى فى كل الكنيسة مجموعة اقزام ســـود مثل الإثيوبيين ، يحاولون أن يسترعوا انتباه الرهبان . وفى الغد جمع الرهبان وأبلغ كل واحد منهم موضوع تشتت فكره فى الليلة الماضية، وهذه الحادثة أعطته الفرصة لكى يعلمهم أن حفظ المخيلة والقلب حفظا جيداً تؤمن ضد خيالات الشيطان .

= « لماذا علمت أن الله أحياني وإذ سوت واناني قائلا : « يا مكاريوس قم اذهب إلى الجماوسة إشرب لبناً وتقوى وامض إلى قلايتك . أما هوقفى واشرب لبناً منها » ... الخ .

الفصل الثانى

إرشادات القديس

١ – توجه القديس الى انبا باخوميوس وارشاده الرهبان بالعمل وليس بالكلام

سمع مرة من رجال « طابنيس [1] » ، وهو اسم دير فى الجنوب انهم كانوا يقومون بعدة خدمات تقوية كثيرة جداً ، فقام الأنبا مكاريوس واستبدل ملابسه وأخذ ملابس فلاح مثل رجل عامل، وذهب إلى الجنوب ماشياً فى الصحراء لمدة خمسة عشر يوما حتى وصل هناك . ولما وصل إلى الدير الكبير سأل عن أب الدير المسمى آبا باخوم (باخوميوس) وكان رجلا مختاراً ومشهوراً ، وهو وإن كانت له نعمة النبوة فإن الله لم يعلمه بموضـــوع الأنبا مكاريوس وكان قد سمع عنه ويرغب أن يراه فلما قابله الأنبا مقاريوس قال له: أرجوك يا أبى أن تقبلنى بديرك ، ربما أصبحت أنا أيضاً راهباً . فقال له أنبا باخوميوس : ماذا تريد يا أخى ؟ أرى انك أصبحت عجوزاً بحالة جسدك، لا تقدر أن تقوم بأعمال

(١) نسبة إلى Tabenna بالقرب من قنا فى مواجهة دندره ويذكر المتنيح القمص عبد المسيح المسعودى فى تحفة السائلين ص ٢٠٦ أنه قد اطلق اسم طابنين على أماكن أنبا باخوميوس عند البحيريين فسموا الرهبـــان الطابنيين لأن هذا أول دير لهم .

التقوى مثل الإخوة المتقشفين. لن تستطيع أن تتحمل الاستمرار فى التدريب ولسوف تعثر وتذهب تتكلم ضدهم. إذهب إلى مسكن الغرباء والفلاحين امكث هناك وسوف أطعمك إلى أن ترغب فى العودة ولم يقبله لا فى اليوم الاول ولا فى الثانى حتى ولا فى السابع، ولما ضعف أنبا مقاريوس لأنه بقى دون طعام، قابل رئيس الدير مرة أخرى وقال له: «إقبلنى يا أبى، وإن كنت لا أصوم ولا أتقشف وإن كنت لا اشتغل بيدى مثلهم فاطردنى من ديرك». حينئذ أرسله نحو الإخوة، لكى يدخلوه وكان عدد الإخوة الذين يسكنون فى هذا الدير ألفاً وأربعمائة. ذهب الأنبا مكاريوس، وبعد أن أمضى هناك بضعة أيام، كانت الأربعين المقدسة، ورأى كل الإخوة، كل واحد منهم يعمل أعمالا تقوية مختلفة، فالبعض كان يصوم إلى الغروب كل يوم والبعض الآخر كان يفطر كل يومين، والآخرون كل خمسة أيام، وآخرون كانوا يصومون ويقفون فى الليل ويجلسون فى النهار. وذهب الأنبا مكاريوس أيضاً وبلل سعف النخل الذى كان معه، وأخذه ووضعه على منضدة مستديرة أمامه، ووقف فى ركن من قلايته، وكان يجدل السلال إلى أن انتهت الأربعين المقدسة، ولم يجلس قط ولم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء ولم يركع ولكنه كان كل يوم يأخذ بعضاً من

ورق «الكرنب» ليأكله أمامهم حتى يعرفوا أنه كان يأكل وإذ كان يخرج ليرش الماء لبيلل سعف النخل، كان يعود مسرعا فوراً لايكلم أحداً ولايفتح فاه قط ولكنه كان ساكناً مصلياً فى قلبه يشتغل فى السعف. فلما رآه كل النساك على هذا الحال، قاموا ضد رئيس الدير قائلين: «من أين أتيت بهذا الشيخ؟» لأنه غير مكسو باللحم أتيت به هنا لكى يدينا، إجعله خارج هذا المكان والا نهرب كلنا».

فلما علم الأنبا باخوميوس صفة أعماله التقوية صلى إلى الله أن يكشف له خبر الشيخ، فأعلمه الله انه الأنبا مكاريوس الاسكندرى الذى كان يسكن شيهيت، فأخذ الرئيس بيد الشيخ، وأحضره فى وسط المكان الذى كانوا يجتمعون فيه، بعد أن فرغوا من صلاة القداس حتى يراه كل جموع الرهبان وقال له: «هيا إلى هنا، أيها الشيخ الجليل كيف يكون ذلك أأنت الأنبا مكاريوس وقد أخفيت نفسك عنا! كم من الزمان وأنا أسمع عنك وأرغب أن أراك! ولكننى أشكرك لانك وعظتنا كلنا وعلمت الإخوة الشبان ألا يفتخروا بأعمالهم التقوية ولو بذلوا غاية جهودهم فلن يقتربوا قط من مقياس الأربعين يوما التى لسيدنا ومخلصنا يسوع المسيح بن الله الحى. وخصوصا أعمالك التقوية أيها الرجل الذى

يشبهنا فقد قمت بها وأنت متقدم فى الايام . إذهب إلى مكانك بسلام فقد وعظتنا وأرشدتنا كلنا بما فيه الكفاية ، صل من أجلنا . حينئذ ذهب بينما كانوا يتوسلون إليه ويرجونه ليصلى من أجلهم [1] .

٢ – ارشاده لليديا المتوحدة

ثم ان سيدة اسمها ليديا سمعت عنه فأتت إليه من تسالونيكى وكانت كاتبة تكتب الكتب ومتقشفة جداً تحيا حياة شاقة وقد أمضت سنة كاملة تسكن فى مغارة كبيرة وكانت تقابل الشيخ ولم يرها أحد فى كل الجبل إلا فى اليوم الذى تركته فيه لتذهب إلى بلدها ، وقد أراحها الله من الافكار التى أتت إليه من أجلها بصلوات الشيخ وعادت إلى بلدها ممجدة الله .

† † †

الفصل الثالث

تعمق القديس فى العبادة

عشرته مع الله

قال لنا شيئاً آخر : « كل عمل تقوى باشرته ، ولكن أيضاً

(١) وردت هذه القصة مختصرة بالسنكسار (اليوم السادس من بشنس)

قد أدخلت قلبى هذه الرغبة وأردت أن أكملها واشتهيت أن أقضى خمسة أيام مفكراً على الدوام فى الله كل ساعة [1] ، لا أعطى بالا لأى شىء آخر فى هذا الدهر ، ولما وعدت نفسى بذلك فى قلبى ، مشيت نحو قلايتى التى فى الصحراء الداخلية التى ليس لها باب أو نافذة ، وليس بها ضوء حتى لا يحدثنى أى إنسان ، ووقفت على الحصير فى داخل القلاية وكنت أحارب فكرى قائلا : إحفظ نفسك ، لا تسقط من السماء ، عندك هنا البطاركة والأنبياء والرسل ، عندك هنا الملائكة ورؤساء الملائكة والقوات العليا ، والكاروبيم والسارافيم . كن متحداً بالله الآب وابنه الوحيد والروح القدس الثالوث الأقدس ، ملك كل القلوب ، اصعد على صليب الإبن الذى فى السموات ، لا تنزل من المكان المحصن . ولما أمضيت يومين وليلتين على هذا الحال كانت الشياطين فى غيظ شديد حتى أنهم غيروا أنفسهم إلى أشكال مختلفة . فأصبحوا مرة مثل الاسود وكانوا يمزقون رجلى بمخالبهم ، ومراراً أخرى أصبحوا كالثعابين يلتفون حول رجلى ، وأخيراً صاروا مثل ألسنة نار ، حتى يحرقوا كل شىء فى قلايتى حتى الحصير الذى كنت واقفاً عليه . لقد أحرقوا كل شىء ماعدا حذائى فقط حتى

(١) ورد ذكر ذلك بالابصلمودية السنوية فى التمجيد الخاص بعيده .

أنى ظننت أنى سوف احترق أيضاً . وأخيراً هربت النار والخيالات . وفى اليوم الرابع لم استطع أن أثبت فى فكرى بدون قلق ، ولكننى نزلت إلى رؤى وهموم هذا الدهر بحسب الناس، لأنى فهمت اننى لو كنت قد حصلت على إتمام هذا الأمر إذن لكنت ضيعت عقلى، كنت تكبرت فى قلبى . لذلك كنت أريح نفسى بإعادتى هموم هذا العالم فى قلبى حتى لا أسقط فى الكبرياء » .

وقال أيضاً هكذا : « قضيت خمسين عاما فى تقشفات فلم أتألم مثل ما تألمت به فى هذا اليوم .

† † †

ملاحظة : هذا يتفق مع ما جاء بذكصولوجية (تمجيد) القديس ويقال بالقبطية يوم عيده فى ٦ بشنس (عن الأبصلمودية السنوية لجمعية نهضة الكنائس ص ٤١٩) .

النص العربى : « تشهد عنك بالحقيقة المغائر المظلمة التى سكنت فيها يا أبانا مقار القس حتى انك استحققت أن تقف أمام الرب خمسة أيام وخمس ليال وعقلك فى السموات ، تسبح مع الملائكة والطغمات السمائية وكل مصاف القديسين ممجداً الثالوث .

أطلب عنا يا أبانا مقار القس وأولاده لابنى الصليب ليغفر لنا خطايانا » .

الفصل الرابع

معجزات القديس

١ – شفاء قس مريض بالسرطان بعد تعهده بالخروج من الكهنوت

حدث حينما كنت قريباً منه مع القديس أليشوس أن جاء قسيس من قريته إلى الأنبا مكاريوس ، وكان وجهه كله مهراً بسبب المرض الذى يسمى السرطان ، فقد أكله وأصبح وجهه عريانا تماما لا يرى فيه لحم بل عظام وكان منظره بشعاً جداً، وكان قد صرف كل ماله على الأطباء ولم يشف . ولما يئس ذهب إلى الشيخ لكى يشفيه من مرضه بمعونة الله وسقط على الأرض عند قدميه يرجوه ، ولكن الشيخ لم يقبل رجاءه وأدار وجهه عنه كلية. أما نحن فرجوناه قائلين : « يا أبانا كن رحيما على هذا الرجل ، أنظر إليه ، واستجب إلى حاجته فقال : « اتركوه انه لا يستحق أن يشفى لأنه بالتأكيد لما ينتهى من القداس يذهب إلى مكان الذبيحة . ولكن القسيس قضى ثلاثة أيام يرجوه دون أن ينظر إليه . وأخيراً أشفق على دموعه وصلاته فناداه وقال له « هل تعرف لماذا جلب الله عليك هذا العقاب ؟ » فأجابه قائلا :

« نعم ياسيدى » قال الشيخ: « ما دمت تعرف خطاياك إذا تبت سوف تخلص » حينئذ أظهر خطاياه فقال له الشيخ : « كيف انك لم تترك الكهنوت ، حتى لا تلقى فى العذاب الأبدى وتخلص » ثم قلنا نحن : « اعط وعداً للشيخ قائلا لن أذهب بعد إلى مكان الذبيحة ، حتى يخلصك الله بصلوات القديس » . ولما وعد الشيخ قائلا: « لن أذهب بعد إلى مكان الذبيحة أخذ الشيخ زيتاً ودلك به كل رأسه ووجهه وشفاه الله ،فنبتت رأسه بالجلد والشعر مرة أخرى فاستأذن وذهب قائلا: « سأبقى علمانياً إلى أن أموت[1] » .

وفى المكتبة الأهلية بباريس (كما وافانا أحد الاخوة من هناك) ، فى قسم منها مخروطات بعض المخطوطات القديمة ومن بين هذه المخطوطات مخطوط قبطى جاء فيه :

« اتيت مرة الى هذا القديس وانه اخبرنى عن قسيس لاحدى القرى وانه كان مطروحا ورأسه كله قد اكله الذى يقال له الشيطان ... وانه أتاه ليبرئه بكلمة ، فابى القديس ان يقبله او يكلمه فطلبت انا منه ذلك وقلت له ارحم هذا المسكين ، فقال لى ليس هو باهل ان يبرا لان هذا الداء بعث به عليه بلية. فان كنت تريد ان يبرا فمره ان لا يقدس بتراخ فقلت له لماذا ياسيد فقال لانه يخطىء ويقدس ولذلك ابتلى بهذا الداء لما كان يخطىء

(١) ذكر بلاديوس أن القديس لم يقبل مقابلة القسيس المريض إلا بعد تعهده بترك خدمة الكهنوت .

ويتجرأ . . فينتزع منه وان الله يشفيه فقلت انا ... وهنا تقف القصة » .

٢ – اخراج الروح النجس وشفاء طفل

حدث له أيضاً هذا الأمر الآخر فى حضورنا. لقد أحضروا إليه طفلا به روح نجس فوضع الشيخ يده على رأسه ووضع يده الأخرى على قلبه ، وصلى إلى الله بانسكاب قلب وباستمرار مدة ساعة حتى أن الشيطان طرد إلى فوق فى الهواء صارخا قائلا : اشفق علىّ ! ولكن الطفل كان كالقربة بسبب انتفاخ جسمه ، ولما أجاب بصوت عظيم أخرجت عيناه وأذناه وأنفه وفمه وكل أعضائه السفلى الماء خارجا كما من ثقوب آنية ، ولما سكب الماء خارجا أصبح كما كان أولا .

حينئذ أخذ الشيخ يده وصلى قائلا : « المجد لك أيها السيد يسوع المسيح يا من تخلص الذين يرجونك ، ثم سكب آنية ماء عليه ومسحه بزيت مقدس وجعله يشرب منه قليلا وأمره هكذا قائلا : « لا تأكل لحماً مدة أربعين يوما ولا تشرب خمراً » . ولما شفى الطفل أعطاه إلى أمه سالماً معافى .

٣ – شفاؤه عذراء

وكان القديس يشفى أناساً عديدين بهم أرواح نجسة وجموع

غفيرة لا تحصى ، ولما كنا هناك (القديس بلاديوس) أحضروا إليه فتاة مصابة بالشلل ومريضة جداً وكانت قد سمعت به فى بلدها ، وجعلتهم يقتادونها إليه ، وبعد ما صلى على زيت شفاها الله بصلواته وصرفها إلى بيتها سليمة تمجد الله .

٤ – شفاؤه ابن الضبعة

حدث يوما بينما كان جالسا فى قلايته ، أن جاءته ضبعة وكان صغيرها فى فمها ، فوضعته بالقرب من الباب ، وطرقت الباب برأسها ، وسمع الشيخ طرقها فخرج وكان يحسبها أخاً جاء إليه ، فلما فتح الباب رأى الضبعة ، فتعجب قائلا : « ما الذى تبحث عنه هنا ؟ » فلات فمها بصغيرها وقدمته للشيخ وهى متأملة فأخذ الشيخ الضبع الصغير بين يديه ببساطة ثابتة وفحصه من ناحية إلى أخرى ، باحثا فى جسده عما كان به من مرض ، ولما تأمل صغيرها وجده أعمى فأخذه وتنهد وتفل على وجهه ، وعلم على عينيه بأصبعه ففى الحال أبصر الصغير وذهب إلى ثدى أمه ورضع وتبعها وذهبا نحو النهر وتوغلا فى الوادى[1] .

هذا ، وجرت العادة أن يقود الليبيون الماعز مرة كل سنة

(١) وردت هذه القصة مختصرة فى السنكسار (اليوم السادس من بشنس) .

إلى وادى شيهيت لكى ترعى ، وكذلك الرعاة الذين من قرى « برنوج »[1] كانوا يقودون أبقارهم إلى وادى شيهيت لتأكل العشب الأخضر ، مرة فى السنة . تركت الضبعة يوما يمر وأتت فى اليوم الثانى إلى الشيخ وفى فمها جلد ماعز وكانت المعزة مقتولة حديثاً وقرعت الباب برأسها وكان الشيخ جالسا داخل السور ، فلما سمع طرق الباب وقف وفتح ووجد الضبعة وفى فمها جلد المعزة والفراء ولم يأخذه ... إلى أن قال فأطرقت الضبعة برأسها نحو الأرض ووقفت على ركبتيها وقد أحنت رجليها محركة رأسها أسفل وأعلى ، ناظرة إلى وجهه وكانت كأنها تعده ألا تأخذ ماعز الفقراء وفهم الشيخ فى قلبه أن هذا كان تدبيراً من الله الذى يعطى الفهم للبهائم ، ومجد الله على هذا وسبح الله الكائن إلى الأبد بلغته المصرية ، وكان يقول « أمجدك يا الله ، الذى كان مع دانيال فى جب الأسود ، الذى أعطى الفهم للبهائم ، كذلك أيضاً الآن أعطيت الفهم لهذه الضبعة ولم تنسنى ، ولكنك أريتنى انها كانت مشيئتك ، وأخذ الشيخ الفراء من الضبعة وكانت تذهب

(١) جبل برنوج كذا جبل نيرى المذكوران فى بعض الكتب هما جبلان لما انهما يجاوران جبل شيهيت ولما انهما موضعان منه (تحفة السائلين ص ٤٤) ـ وذكر « شهنو » ان ثغريا تسمى الآن جبل برنوج .

من حين إلى آخر إلى الشيخ عندما لاتستطيع أن تجد طعاماً فيلق لها خبزاً وفعلت ذلك مرات عديدة ، وكان الشيخ ينام على الفراء إلى أن تفيح .

وقال كاتب سيرته قد رأيته بعيني ، لأنه إذ كان على وشك أن يتنيح ، تصادف أن كانت « ميلانى » ملكة الرومان ، فى زيارته فأعطاها هذا الجلد الذى نام عليه حتى نهاية حياته ميراثا وحفظته بإيمان للذكرى.

وكان للأنبا مقاريوس قلايات عديدة فى الصحراء ، كانت له واحدة فى الصحراء الداخلية ، وأخرى فى ليبيا وثالثة فى الجبل الذى يسمى القلالى[1] وغيرها فى جبل برنوج ، وبعضها لم يكن له باب إذ هى فى الصحراء الداخلية حيث لا يستطيع إنسان أن يصل إليها ، وهذه هى التى كان يسكنها فى زمن الأربعين المقدسة، وكان هناك مغارات مظلمة تحت الأرض تشبه مأوى الضباع ، لأنها كانت ضيقة جداً حتى أنه لم يكن يستطيع أن يمد رجليه بتاتاً ـ وكانت القلاية القريبة من الناس واسعة ويستقبل فيها الإخوة .

(١) عرف بهذا الاسم لكثرة الرهبان فى تلك المنطقة وبناء قلالى عديدة ليتنسكوا له .

ذكر عن القديس مكاريوس أنه روى هكذا : «حدث لى فى أحد أيام الأعياد لما كان الإيبوذياكون فى مكان الذبيحة أن سقط الكأس من يده وتكسرت قطعا لأنها كانت من الزجاج، وهم فى صحراء لايستطيعون أن يملكوا كأساً من الفضة ، وقد سمعت صوت الكأس كسرت على يد الإيبوذياكون ، فدخلت إلى مكان الذبيحة ، وكان كل الشعب جالساً يرتل المزامير فقلت للإيبوذياكون : « لا تضطرب ولا تكن صغير القلب ، ولكن إجمع كل الأجزاء ولا تترك أحدها وألقها على مكان الذبيحة ، واتركها واخرج ولما خـــرج القديس الأنبا مكاريوس مع الإيبوذياكون جلسا قليلا.فقال الأنبامكاريوس للإيبوذياكون: « إذهب إلى مكان الذبيحة وما تراه لا تقل لأحد عنه ، فدخل الإيبوذياكون ووجد الكأس سليما ، وكانت الكأس مجمعة وآثار الأجزاء التى كسرت كانت ظاهرة ولكنها كانت ثابتة ، وإلى اليوم توجد هذه الكأس. وقال تلميذه لما علمت بهذا الخبر ذهبت إلى الإيبوذياكون فأرانى هذه الكأس ، ورأيتها بعينى وقبلتها ومجـــدت الله . ولما جاء أب دير تاشنتوش[1] من تانيس

(١) دير تاشنتش ، لا يعرف إذ كان هذا الدير والذى فى مدينة =

المدينة [1] جال بالجبل وجمع تبرعات كثيرة وزعها على شيوخ الصحراء ، وطلب هذه الكأس فأعطاه إياها وهى الآن فى دير تاشنتوش إلى هذا اليوم .

٦ – قصة طبخ الرمل

قال المؤلف ويحكى أيضاً عن القديس أنه لما كان شابا فى راكوتى [2] وكان يمارس التمثيل حتى أنه أصبح ممتازاً ولما ترهب وارتفع فى الفضيلة فى الصحارى ، سمع عنه زملاؤه القدامى أنه أرتفع فى عمل الله ، فذهبوا إليه فى الصحراء وكانوا سبعا ، ولما صافحهم وقبلهم جلسوا بالقرب منه متعجبين من طرقه ، ولما أتت ساعة الأكل وضع ماء فى إناء ثم وضعه فوق النار ليطبخ لهم عصيدة ، وفيما كان يغذى النار تحت الماء ، حتى يغلى قبل أن

= سان المجر أم بجوارها وجاء ذكر هذا الدير فى سيرة القديس المحفوظة باللهجة البحيرية فى مخطوطة المكتبة الفاتيكانية رقم ٦٤ ورقة ٨١ القرن الرابع الميلادى – ولم يمكن العثور فى المصادر التاريخية على معلومات عن هذا الدير (كتاب الرهبنة القبطية ص ١٢٥) .

ملاحظة : سان المجر كانت بمركز كفرالزيات .

(١) تانيس هى مدينة دمياط الحالية .

(٢) هى القرية التى وصلها الاسكندر بجزيرة فاروس وجعل منها الاسكندرية .

يضع بها الدقيق جلس وكان يحتى بهم كما كان يفعل إذ كان فى العالم ، فلما رأوه على هذا الحال قالوا بعضهم لبعض : « ألم يقولوا لنا عنه أنه أصبح خادما لله ؟ إنا نراه كما كان فى العالم معنا ، إنا لا نرى أى تغيير فى الطريقة التى كان يعيش بها معنا فى راكوتى. فلما رآهم القديس يتكلمون الواحد مع الآخر عن الصراحة الكبيرة التى عاملهم بها ، أخذ طبقاً فارغا وأعطاه إلى الكبير فيهم وقال لهم : « املأ هذه الآنية بالرمل ، وألقه فى الإناء حتى تطبخ العصيدة ونأكل » . ولما سمعوا هذا ضحكوا قائلين : « حقاً لقد تقدم مكاريوس فى التمثيل الهزلى أكثر أيضاً مما كان معنا فى العالم ! » فقال لهم ثانية : « ما أقوله لكم فافعلوه » أما هم فأطاعوه: ملأوا الآنية رملا ورموه فى الإناء وأصبح عصيدة حلوة مثل عصيدة القمح ، فلما رأى الممثلون السبع الأعجوبة التى حدثت بواسطة الشيخ القديس ، لم يرجعوا إلى مصر وتركوا العالم وترهبوا واشتغلوا بأعمال القديس [1] .

(١) يقول E. Amélineau فى كتابه :
" Histoire des Monastères de la Basse Egypte "
إنه من المتفق عليه أن أقوال القديس مكاريوس كانت بالقبطية ، ويرجح أن أحد الرهبان اليونانيين الكثيرين الذين سكنوا شيهيت قد ترجمها إلى اللغة اليونانية ، أو ربما يكون قد ترجمها أحد الرهبان الأقباط =

٧ – زيارة القديس للاسكندرية
وبصلاته ينزل المطر

يحكى أيضاً عن القديس مكاريوس الاسكندرى أنه حدث مرة أن السماء لم تمطر على الأرض، فكان هناك كثير من الديدان والحشرات فى الحقول ولكن الأنبا تيموثاوس[1] أرسل عمالا إلى القديس مكاريوس قائلا : « تعال إلى راكوتى[2] » ، وصل

= ممن كانوا يعرفون اللغة اليونانية ، ولا يستبعد هذا بسبب أخطاء كثيرة فى اللغة اليونانية التى تنتشر فى الترجمة .. وأن الوقائع التى يذكرها المترجم اليونانى وأمثاله لا ينبغى أن تطرح جانبا بدون فحص ، لكن بالعكس يجب أن يعطى لها جانب كبير من العناية لأنها كانت بلاشك فى إحدى المجموعات القبطية التى اختفت ... ويراعى الحذر عند كتابة تاريخ القديس مكاريوس الاسكندرى ...

ونقول إنه مصداقا لما جاء بتعليق المؤلف عن السيرة هن بعض الوقائع نفيد أنه وردت بالسيرة بعض القصص التى لم ترد فى كتب التاريخ الأخرى مثل قصة ممارسة التوتيل ومثل قصة الكأس الزجاجية .

ونظراً لأن النسخة القبطية المخطوطة التى نقلت إلى الفرنسية ذكرت هذه القصص فقد أثبتناها فى الترجمة ولم نتعرض لما ورد فيها باعتبار أنها من النصوص الأثرية العظيمة القيمة ...

(١) البطريرك ٢٢ .

(٢) راكوتى بالقبطية معناها الاسكندرية .

إلى الله حتى ينزل المطر فيقتل الديدان والحشرات ، ولما أقنعوه مع رجاء ذهب معهم إلى راكوتى، ولما وصل بالقرب من المدينة خرج جمع كبير بالسعف ، ولما وصل إلى الترابيل الذى كان فى وسط المدينة كان باستمرار يصلى . ولما وصل إلى باب الشمس، إبتدأت السماء أن تنزل قطرات ماء . ولما دخل الكنيسة كانت أمطار غـــزيرة لمدة يومين وليلتين متتاليتين ... وقال الشيخ لرئيس الاساقفة : «لأى أمر أرسلتم تستدعونى، لماذا جعلتمونى أترك قلايتى وأحضرتمونى إلى هنا ؟ » ، فأجابوا أحضرناك إلى هنا لكى تصلى ، حتى يأتى ماء المطر وقد رحمنا الله وتكفى هذه الأمطار الغزيرة ، صل إذن لكى يذهب المطر بعيداً . . . ولما صلى القديس تبدد ماء المطر وتوقفت المياه بأمر الله وبصلوات القديس[1] . حينئذ صاح اليونانيون براكوتى : إن ساحراً دخل من باب الشمس ولم يعلم ذلك ! . وامضى القديس هناك ثلاثة أيام شفى فيها جمعا من الرجال المرضى وبعض المفلوجين وكثيراً من المرضى الآخرين ...

هذا حدث من قبل الله لكى يخلص جمعاً ولكى يعطى ماء

(١) وردت هذه القصة بالسنكسار (اليوم السادس من بشنس) .

المطر ، وبعد هذا خرج من راكوتى عائداً إلى شيهيت فى رعاية الله وكان الإخوة يقولون له: « يا أبانا هل ذهبت إلى راكوتى؟» أما هو فقال لهم : صدقونى يا إخوتى لم أر عموداً ولا ميدانا عاما ولم أتوجه إلا إلى رئيس الأساقفة وكانت الجموع تزاحمنى ويحيطون بى ولكنى جعلت فى قلبى ألا أرفع بصرى إلى فوق حتى لا اعرض للتجربة نفسى ...

٨ – شفاء القديس من سم الثعبان وقتله للثعبان

كانت مياة المنطقة الراكدة فى الصحراء كما هو معلوم كريهة وكان شربها وحده بالنسبة للتوحيدين بعد إذلالا للجسد قد يكون أقسى أنواع التقشف ، وحدث مرة أيضاً أنه كان يحفر بئراً فى وسط القصب ، وكان هناك ثعبان يسكن فى هذا المكان راقداً ، دون أن يعرف أحد ، وكان هذا الثعبان ساماً جداً وكان مختبئاً فى القصب بسبب البرد ولما أشرقت الشمس وجاء الدفء ذهب الشيخ ووقف على الأرض وهو لا يعلم فتألم الثعبان ولدغ الشيخ فى رجله[1] ، لكنه لما أخذ الثعبان الحى بين يديه

(١) ذكر « شينو » هذه القصة التى ترجمت عن «Amélineau» أن القديس لما شرع فى حفر البئر مؤملا أن يصادف جدول مياه =

قال له : « أى شر صنعت لك ، حتى أنك تجرأت أن تلدغنى دون أن يعطيك الله هذا السلطان ؟» إذن أنت من طبيعة شريرة وسوف أعاملك بحسب شرك ، ومسك الشيخ شفتى الثعبان بيديه وشده ، فقسمه من وسطه حتى ذيله ، وجعله جزأين ، وهكذا لم يتألم الشيخ البتة ، وكان كمن أصابه وخزة من قصبة .

† † †

= حلوة فى أعماق الأرض إذ بتعبه ان كان مختبئاً فى الرمل الذى كان يحفره فدغه .

الفصل الخامس

طرف من أخباره

١ – سرقة قلايته وتصرفه مع اللصوص

حدث ان كان هناك غلاء فى كل الأرض وعند الليبيين الذين يسكنون الجبل ـ وجاء لصوص ليبيون يبحثون فى الصحراء ووصلوا إلى قلاية الأنبا مكاريوس ومعهم ناقة محملة بأوانيهم ويقرب ماء لكى يشربوا فى الصحراء ، ولما دخلوا قلاية القديس لم يجدوه فأخذوا كل ما يحتاج إليه جسده ، شغل يديه وسعف النخل الصغيرة وذهبوا بها وحملوها على الناقة ، وحدث بعد ما حملوا الأوانى عليها ولما كانوا على وشك القيام لم تستطع الناقة أن تقف ، وكانت تصرخ ولا تستطيع أن تنهض ثم ظهر الصباح وخرج الشيخ من المكان الذى كان فيه فرأى من بعيد الرجال والناقة، ففطن انهم أحضروا إليه من مصر أشياء لازمة للجسد، لكى يأخذوا منه شغله اليدوى حسب عادته ، ولما اقترب منهم تعرف على سلاله وحصيره والأشياء اللازمة للجسد فسكت ولم يتكلم ، فلما رأوا الشيخ القديس سقطوا على الأرض وسجدوا له نادمين ولم يغضب ولم يؤنبهم لكنه جاز ودخل قلايته فوجد

أنهم رفعوا كل شىء ماعدا آنية صغيرة كان بها زيتون ، لأن هذه الآنية كانت وراء الباب ولم يروها فأخذ القديس ذو الشيخوخة الحسنة آنية الزيتون وأخرجها لهم قائلا : « أتريدون أن تعلموا لماذا لم تستطع الناقة أن ترفعها ؟ » فقالوا له « نعم » فقال لهم : « لانكم نسيتم هذا الزيتون فإنكم لم تستطيعوا أن تقيموها » . ولما وضع الآنية فوق الناقة فى الحال وقفت فتركهم يذهبون بسلام . وفى الغد حضر بعض الإخوة من السفر إلى الشيخ لسماع أقواله النافعة ، وقد أتت ساعة الأكل ، وكان الإخوة يرغبون أن يأكلوا قليلا فلما علم أفكارهم قال لهم : هناك أربعة أرغفة فى حقيبتكم ، أحضروها إلى هنا لنأكل قليلا لأن المؤن التى كانت بالمكن أعطاها الله إلى بعض العلمانيين ولهم نساء وهم فقراء ويحتاجون إليها فى الجماعة القائمة .

٢ – زهد الشيخ وصلابة ارادته وكراباته

(أ) زهده : قال أيضاً هذه الكلمة إلى إخوة شبان يعظهم: « منذ اليوم الذى صرت فيه راهباً لم آكل خبزاً حتى الشبع ، ولم أنم حتى الشبع ، وكل الآباء الشجعان لم يمرضوا ، لأنهم كانوا يضبطون أجسادهم بحسب القدر المحدد .

وروى لنا أيضاً هذا عنه :

« فى زمن شبابه قضى سنة كاملة دون أن يكون لابساً شيئاً سوى قطعة من القماش مربوطة على حقويه وأعضائه ، وكانت له ثلاث قلايات فى شيهيت ، واحدة فى وسط الصحراء الداخلية الكبرى وواحدة فى وسط البرية فى شيهيت وواحدة بالقرب من العمران على مسافة صغيرة .

(ب) صلابة ارادته وهربه من المجد الباطل

ذات مرة أيضاً أتعبت فكرة المجد الباطل والكبرياء الانيا مكاريوس فكانت الشياطين تريد أن تدفعه خارج القلاية وكانت أفكاره تحدثه . « ها ان اسمك أصبح عظيما فى العـــالم أجمع قم إذهب إلى روما بلد المسلوك لكى تشفى المرضى حتى لا تضطرهم إلى متاعب هـذه المسافة الطويلة لان الرومانيين متفقون مع المصريين فى أعمالهم التقوية وإيمانهم المستقيم ، وبهذا الإغراء كانت الشياطين تريد أن تخرجه من قلايته إذ تقول له : « لقد أعطاك الله بصيرة ونعمة شفاء كبرى فقم إذهب لانه تدبير الله» ولما رأى أنهم أتعبوه جلس على عتبة قلايته وقال لهم : « إذا كانت عندكم القوة الكافية فانقلونى من هنا بعنف ، فلما أثقل عليه الشياطين صرخ بغضب قائلا : قد قلت لكم الآن ليس لى أرجل، إذا كانت عندكم القوة احملونى واذهبوا بى إلى روما لانى سأبقى

هنا حتى مغيب الشمس ، فلما طال جلوسه قام . ولما جن الليل أتعبته الافكار ثانية فأخذ قفة ووضع فيها كيلين من الرمل وحملها وطاف بها كل الصحراء ، فقابله قوم من الإخوة وقالوا له : « لماذا تحمل هكذا يا أبانا ؟ ولماذا تتعب نفسك ؟ » فقال لهم : « إنى أتعب من يتعبنى، فإنى إذا أرحته يجلب علىّ أفكاراً قائلا : « قم واذهب إلى الخارج ، فلســا مكث طويلا يجوب الصحراء دخل قلايته وهو منهوك القوى .

ه – تجاربات شهوة الاكل وشهوة الجسد

† أحضر إليه أحدهم ذات يوم عنباً فاخراً وكان القديس يشتهى من مدة طويلة أن يتذوقه ، ولذلك كانت التجربة قوية جداً خصوصاً وأنه لا شىء فى ذاته يتعارض مع قبوله هذه الهدية الشهية . ولكنه انتصر نصراً كلياً على الشهوة وأهدى العنب إلى أخ مريض وكان يعلم بحسه المرهف فشكر هذا الأخير القديس مكاريوس بحرارة على لفتته الكريمة ولكنه لتقشفه هو أيضاً مثله أعطاه إلى جاره فى الصومعة ، وهذا الاخير فعل أيضـــاً هكذا ...وحُمل العنب بهذه الطريقة إلى صوامع سيليا وفى النهاية عاد كما هو إلى مقاريوس الذى لم يمسه أخيراً [1].

(١) من Les Saints d'Egypte - Cheneau

وفى الواقع كان القديس يجتهد جداً لكى يزيد فى إذلال نفسه عن المتوحدين الآخرين معترفاً أنه أحقرهم وأكثرهم كلهم خطأ، وسمع مايقال أنه فى تبينيسى (قرب قنا) لايتناول الرهبان طوال الصوم الكبير شيئاً مطبوخاً فأراد أن يقتدى بهم فى الحال واكتفى لمدة سبع سنوات بالخضار، وفيما بعد حينما سمع أن أخا لايأكل سوى قليل من الخبز كسر الرغيف الذى كان معه وأسقط الكسر فى ابريق الماء وقرر ألا يأكل إلا ما تأتى به يده التى يضعها فى فتحة الابريق الضيقة. وهكذا فعل لمدة ثلاث سنوات لا يأخذ فى اليوم سوى أربع أو خمس أوقيات كان يرشها بماء مالح، وفى الاعياد كان يضع قليلا من الزيت وكان يستهلك من الزيت فى كل عام ما يوازى نصف لتر، ولقد فعل أكثر من ذلك فقرر أن يحارب ويهزم النعاس: فلم يدخل فلايته لمدة عشرة أيام وعشر ليال متوالية وكان يبقى عارجا تحرقه الحرارة فى النهار ويقرسه البرد والرطوبة فى الليل. ولكى يتسلط على شيطان الجسد استضافته مستنقعات الإسقيط لمدة ستة أشهر متوالية بين القصب حيث كان الناموس يبلغ حجمه حجم الدبور ويمكنه بذنبه الحاد أن يخترق حتى جلد الخنزير البرى. وقد هاجته هكذا بشدة حتى أن جسده المليء بالقروح كان يشبه الابرص.

† وحدث مرة أن حاربته أفكار الزنى بقوة فللحال شرع فى القتال ضدها فأخذ وعاء يسع خمسة أقساط وقفة خوص وعشر خبزات ومضى إلى البرية الداخلية حيث مكث عشرين يوماً وهناك استمر يقاسى حرارة الشمس المحرقة والجوع والعطش إلا ما يسد الرمق، وكان يعمل فى ضفر الخوص حتى خلص من التجربة المرة.

† † †

الفصل السادس

نفيه ونياحته

اضطهده فالنص الاريوسى ونفاه مع القديس مكاريوس المصرى إلى جزيرة أنس الوجود بأعلى الصعيد وكان أهل الجزيرة وثنيين يعبدون الاصنام وكان كاهن هيكل الاصنام محل احترام الجميع فلما وصل هذان القديسان ومن معهما من الرهبان إلى الجزيرة كانت ابنة الكاهن الوثنى مصابة بروح نجس ولما صليا على الفتاة شفيت وللحال آمن كثيرون من أهل الجزيرة.

ولما صدر الامر بإرجاعه من النفى سكن بريته الاولى حتى

تنيح فى ٦ بشنس وهو ابن مائة سنة وكان ذلك سنة ٤٠٤ م ، وكان قد شاخ جداً وتقلعت أسنانه وسقط شعر لحيته .

وذكر بلاديوس صديقه أنه زاره قبل نياحتـــه وجلس بالقرب من باب قلايته لكى يسمع ماذا يقول وكان الأنبا مكاريوس عمره مائة سنة فسمعه وهو وحده يكلم نفسه قائلا : « ماذا تريد أيها الشيخ الشرير مكاريوس؟ ، ها انك تشرب خمراً وتأخذ زيتاً ماذا تريد أيضاً ؟ ثم تكلم مع شيطان آخر : « أعندك شىء ضدى ؟ لن تجد فىّ شيئاً لك . اذهب بعيداً عنى » . وأصبح أيضاً كمن يؤنب ذاته قائلا : « هيا أيها الجواد الخائن ! لا تجبن طالما أنا معك .

وللقديس مكاريوس قوانين كثيرة طبعت فى باريس سنة ١٦٣٧ م ورســـائل عن نفوس الأبرار بعد الموت طبعت فى سويسرا سنة ١٦٩٦ م .

† † †

الفصل السابع

القديس مكاريوس الاسكندرى

وتلميذه للقديس انبا انطونيوس

ذكر شينو فى كتابه « Les Saints d'Egypte » ما ترجمته:

« مقار الاسكندرى... كان فى نحو الاربعين من عمره وكانت فى ذلك الوقت زيارته للقديس أنطونيوس الكبير فى طيبايد (١) التى حددت دعوته دون رجعة ، حينما وصل إلى صومعة ذلك الذى كانت شهرته تملأ كل مصر ، وجد على الأرض كومة من الخوص كان الناسك قد جمعها وعملها. فقال له : « أيها الآب أعطنى

(١) فى القرن الرابع كان يطلق اسم « طيبايد » على كل الجزء من مصر جنوب ممفيس وكانت تنقسم إلى طيبايد السفلى وطيبايد العليا ـ الأولى كانت تضم الهبتانوميد أو مصر السفلى والثانية كانت تضم الصعيد ... فقد ذكره شينو » .

" Au IV siécle on appelait Thebaide toute la partie de l'Egypte au dessous de Memphis, et on la divisait en Basse Thebaide et en Haute Thebaide :

La premiére renfermant l' Heptamomide ou Moyenne Egypte .

La Seconde, la Haute Egypt".

بعضا من الخوص » ، أجاب القديس : « يا ابنى مكتوب انه يجب ألا تشتهى مال الغير » وللحال تحول كل الخوص كأنه مشوى بالنار ـ فلما رأى القديس هذه الأعجوبة ، وضع يديه على هذا الزائر العجيب قائلا : يا ابنى ان روح الله القدوس حل عليك وقد جعلك وريثاً لقوتى . » أما القديس مكاريوس فتأثر جداً بنوع الحياة التى يحياها القديس أنطونيوس وفكر فى الشروع فى أتباعه واتخذ قراره بترك كل شىء فى هذا العالم بسرعة ـ وباشتياق وسرور استبدل حلاوة مهنته الأولى التى لا طعم لها بحلاوة خدمة الله التى لاينطق بها وذهب إلى الصحراء المجاورة لليبيا ».

وذكر كتاب تاريخ الكنيسة للقس منسى يوحنا ص ٢٠٠ أن القديس مكاريوس الاسكندرى انطلق إلى القديس أنطونيوس وتتلمذ له ثم ترهب بوادى النطرون ـ فى أيام أنبا مكاريوس الكبير .

وقد ذكر « E. Amélineau » فى كتابه « Histoire des monastéres de la Basse Egypte » ص ٣١ أنه يجب التمييز بدقة بين القديس مكاريوس تلميذ القديس أنطونيوس الذى خدمه لمدة خمس عشرة سنة ودفن جثته وبين

القديسين مكاريوس الآخرين المصرى والاسكندرى .

لقد عاش القس مكاريوس تلميذ القديس انطونيوس فى دير « بسبير »[1] بالقرب من البحر الأحمر ومن الصعب تحديد مكانها بالضبط إلا أنه يقال أنها كانت واقعة فى الجبال التى تبعد بعض أميال عن الحافة الشرقية للوادى على مقربة من بنى سويف ـ وهى المنطقة التى بدأ فيها القديس أنطونيوس حياته الرهبانية الأولى ثم انتقل منها إلى الجبال النائية المطلة على البحر الأحمر ، وتبعه إلى Pispir وما وراءها عدد هائل من الرهبان ... وقد إزداد عددهم إبان حياته ، وفى شيخوخته حتى بلغوا الآلاف (ص ١٥٧ مقالة الدكتور عزيز سوريال عطية ، كتاب الرهبنة القبطية ،) فى حين أن القديسين مكاريوس المصرى والاسكندرى عاشا فى برية شيهيت والأول كما يؤكد بلاديوس تنيح فى الإسقيط والثانى تنيح فى القلالى

إذن يكون القديس مكاريوس تلميذ القديس انطونيوس الذى دفن جسده **وخلفه فى قيادة الرهبان** غير القديس مكاريوس الكبير والقديس مكاريوس الاسكندرى، وان تلمذة الأخيرين كانت وقتية ، أما الأول فكانت دائمة .

(١) بسبير Pispir فى الصعيد الأوسط .

ويذكر تاريخ القديس أنطونيوس أنه لما شعر بقرب نياحته أرسل تلميذيه مكاريوس وأماناس إلى أولاده المحبوبين ليقولا لهم أن يحضروا بسرعة إذا كانوا يرغبون فى أن يروه للمرة الأخيرة ... وتنيح بسلام فى ١٧ يناير سنة ٣٥٦ م .

† † †

الفصل الثامن

صداقته للقديسين الكبار

كان القديس مكاريوس الاسكندرى صديقاً للقديس بلاديوس، فى صلات روحية وثيقة تعلم فيها الكثير عن الرهبنة المقدسة ، وكان شاباً فى حوالى الثلاثين من عمره ، وهو الذى كتب سيرته .

كان أيضاً على صلة قوية بالقديس مكاريوس الكبير فقد كانا صديقين يتزاوران ويذكر عنهما التاريخ قصصاً كثيرة من بينها القصة التالية :

بعد بضع سنوات من حياة الرهبنة ذهب مكاريوس الاسكندرى **وكان قد رسم قسا** إلى الإسقيط لزيارة سميه الشهير مكاريوس الكبير وكان الاستقبال رائعاً للغاية والترحيب أكثر

ما يكون قلبياً . وقد امتدت الآفاق بأحاديث تقية وصلوات لا تتوقف وأعمال بناءة متبادلة .

وقد كانت محاربة دائمة لبطل التقشف فى التواضع . وأرادا يوما عبور النيل فركبا معاً سفينة كبيرة وجلس معهما رئيسان عسكريان بملابس التشريفة ، كانت عربتهما من النحاس ولجام خيولهما من الذهب ، وكان بصحبتهما حاشية بوية من العبيد يحملون الأحزمة وحلى الرقبة مرصعة بالأحجار الكريمة، وعندما رأيا هذين القديسين جالسين على حدة كأنهما خجلان ويشعان سروراً وسماحة شعر الرئيسان بتقدير غير اعتيادى لهما وقررا علناً أن حياتهما الفقيرة أفضل من حياتهما أنفسهما وقال أحدهما : « أنتما طوباويان لأنكما فكرتما حسناً بازدرائكما بالعالم واحتقار كماله ، فرد مكاريوس الاسكندرى : « أنتما على حق ، فنحن قد خدعنا العالم ، ولكنى أخشى كثيراً أن يكون العالم هو الذى يخدعكما أنتما الذين يستبقيكما فى أغلاله ، وكان مكاريوس قد احتفظ من حالته الأولى بميله الظاهر للحلويات ، ولكن فى الصحراء كانت الفواكه وحدها هى التى تستطيع أحياناً أن تشبع رغباته البريئة وكان هذا معروفاً عنه فى « سيليا » ، وكان يحب مع ذلك أن يعمل حساب التقشف الذى كان يعيش فيه، وكان

يعرف كيف يتفوق فى الحيلة حتى على مجاملات إخوانه . وقد نفيا سوياً إلى جزيرة أنس الوجود كما سبق بينا [1].

كان ايضا صديقا للقديس ارسانيوس الكبير

ذكر الأنبا دانيال أحد تلاميذ القديس أرسانيوس عنه أنه ما كان يجدد ماء الخوص إلا دفعة واحدة فى السنة فكلما نقص الماء أضاف إليه قليلا منه وهكذا صارت له رائحة كريهة جداً ونتن لايطاق وكان يعمل الضفيرة ...

وحدث ان زاره الآب مكاريوس الاسكندرى فلما اشتم الرائحة قال له « يا أبانا أرسانيوس لم لا تغير هذا المساء لانه قد أنتن ؟ فأجابه أبنا أرسانيوس قائلا : « الحق انى لا استطيع أن أطيقها لكننى أكلف نفسى باحتمال هذه الروائح الكريهة وذلك عوض الروائح الزكية التى تلذذت بها فى العالم ، فلما سمع الإخوة ذلك انتفعوا [2] .

(١) يقول Dr. O'leary فى كتابه The Saints of Egypt ص ١٨٥ إنه وسم قبل بعد القديس مكاريوس الكبير وانه كان رئيسا لمنطقة القلالى ، وان الرسائل التى تبودلت بين أمونيوس إلى الاوفيلس توضح أنه كان فى نتريا فى سنة ٣٥٥ م .

(٢) عن كتاب بستان الرهبان الجزء الأول ص ٤٤ طبعة سنة ١٩٥١ .

الفصل التاسع

من تلاميذ القديس مكاريوس الاسكندرى

١ – القديس مرقس

ذكر « شينو » ص ٣٥٧ (قديسو مصر) ما ترجمته :

كان مرقص عمره ٤١ سنة حينما ترك العالم [1] لأجل الوحدة بالاسقيط ، كان قصير القامة وأصلع وبدون لحية تقريباً ولكن لست أعلم أى نور كان يخرج من نظرته وينير وجهه ـ كان جم النشاط وله علم غزير جداً ، يعرف الكتب المقدسة معرفة عميقة ويستطيع أن يتلوها من الذاكرة ووصل إلى درجة البطولة فى الفضيلة ، وتشهد مؤلفاته المملوءة بالمعرفة ووجهات النظر السامية على الحياة الداخلية المتوقدة فيه ، وكان لطفه واعتداله مضرب الأمثال فى الإسقيط عند النساك الذين لا يحصى عددهم وكانوا يسكنون هناك فى ذلك الوقت ـ وهناك التقى بالقديس مكاريوس الاسكندرى حيث كان يخدم القداس ، أبولس الصغير والقديس موسى الاسود ـ وشاء الله أن يكافئة فى هذا العالم على طهارة قلبه بأعجوبة يكاد لم يسمع بمثلها أحد ـ ويشهد

(١) سيرته شبيهة بسيرة معلمه فقد ترك العالم وعمره ٤١ سنة .

القديس مكاريوس بهـــا . فكل يوم فى ساعة التناول كان ملاك يـــنزل من السماء . ويظل الرسول السماوى محجوباً عن أعين الحاضرين الذين لم يكونوا يبصرون غير ساعده ويده تقدم للقديس مرقس الجسد والدم الأقدسين على الملعقة الذهبية الصغيرة . من يعجب بعد ذلك إذا كان الله قد وهبه نعمة عمل المعجزات ؟ . وقدم مرقس الذى كان يخدمه فى شيخوخته اليه (القديس مكاريوس الاسكندرى) إبن الدوق وكان مؤمناً فجاء إلى الشيخ الذى يسكن فى الجبل المقـــدس مشتغلا بعمله اليدوى ، يأكل من تعبه ويحسن إلى الغرباء . قال التلميذ : قال لى أبى مكاريوس : رأيت رؤيا ، لم أعط البركة مرة إلى مرقس الناسك ، ولكنه لما حضر ليأخذها رأيت مـــلاكاً يعطيه إياها بيديه .

وكان الأنبا مكاريوس كاهنا للكنيسة ، وكان مرقس شابا قد حفظ أغلب العهدين القديم والجديد وكان لطيفا جداً وحكيما . . .

٢ – القديس « بفنوتى » [1]

إن تاريخ المتوحدين فى الإسقيط ونتريا يضع هذا القديس

(١) من « شينو » الجزء الثانى ص ٥١٤ .

فى صفوف أكثر الشخصيات كرامة . فهو يضعها على حـــد سواء وسيرابيون الكبير والقديسين مكاريوس الاسكندرى والمصرى . كان معاصراً للقديس أنطونيوس الذى كان يرى فيه الرأى الصائب ويقول عنه أنه يستطيع أن يكون عاملا على خلاص نفوس كثيرة .

مكث أكثر من ٢٤ سنة فى الوحدة ولم يكن يهتم بالملبس فـــلم يلبس قط ثوبين مهما كانت شدة البرودة فى ليالى الشتاء . وكان الروح القدس قد أعطاه موهبة معرفة أسرار الكتب المقدسة ، وبالرغم من أنه لم يقم بدراسات فقد كان معروفا كأبرع مفسر فى الصحراء .

ويقول Dr. O,leary فى كتابه The Saints of Egypt ص ٢٢١ إن هذا القديس هو الذى استقى منه يوحنا كاسيان المعلومات عن مكاريوس الاسكندرى ، ومن المرجح أنه نفى أيضاً مع القديسين مكاريوس المصرى ومكاريوس الاسكندرى.

ويجب عدم الخلط بين القديس وسميه القديس بفنوتيوس الذى خلف القديس مكاريوس الكبير فى قيادة الرهبان وهو المعروف ببفنوتى الناسك .

عدا ذلك كثيرون بهذا الاسم منهم القديس بيفنوتى الشماس

والشهيد ، والقديس بفنوتيوس أسقف طيبـــه ، وبفنوتيوس الناسك بدير القديس مكاريوس (٩٨٠ - ١٠٠٦ م) وبفنوتيوس رئيس الرهبان قرب هراكلوبوليس (اهنا سيا) .

الفصل العاشر

نبذة عن وادى النطرون [1]

الموقع

وادى النطرون هو واد حوضى منخفض فى الصحراء الليبية طوله ٦٠ كيلو مترا وطول البحيرات الموجودة فيه ٢٠ كيلو متر ومنسوبه المنخفض وهو منسوب البحيرات ٢٢ مترا تحت مستوى البحر - والمسافة بينه وبين القاهرة ٨٠ كيلو مترا وبينه وبين الاسكندرية ٨٥ كيلو مترا ، ومياه البحيرات ملحة وتزداد فى زمن الفيضان قليلا وبعضها يجف تماما فى الصيف أما عمقها فلا يزيد على مترين .

كانت الصحراء الليبية الموجود فيها وادى النطرون فيما مضى جزءاً من ليبيا ، وكانت فى العصور القديمة اقليما مستقلا ، وكان

(١) مترجمة عن مؤلف عمر طوسون عن وادى النطرون .
Etude sur le Wadi Natroun.

الليبيون فى نزاع مستمر مع المصريين ، وقد غزا الليبيون بعض بلدان الوجه البحرى وعمدوا إلى السلب والنهب - وقد أحتلوا فى وقت ما الجزء الغربى من مديرية البحـــيرة . لكن المصريين قاوموا الغزو ، وانضمت الصحراء الليبيـــة إلى مصر . ومن الصعب تحديد التاريخ الذى ضم فيه المصريون وادى النطرون لأن التاريخ لم يعلن ذلك ، فقط يعلم أن رمسيس الثالث ، وهو الفرعون الأول من الأسرة العشرين (١١٨٠ ق . م) قاوم غزو الليبيين لأرض الوجه البحرى وهزمهم .

ويبدو أن وادى النطرون فى زمن الفراعنة كان يمثل قسما قائما بذاته على حدة ، ولكن تاريخه مجهول فى ذلك الوقت كلية.

ويقول شمبوليون فى كتابه « مصر تحت حكم الفراعنة » الجزء الثانى ص ٢٩٥ .

« ان بطليموس الجغرافى الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى يضع فى جنوب بحيرة مريوط منطقة من ليبيا المصرية يسميها ستيا كو ريجيو ، ويرى أن هذه المنطقة لا تنطبق فى اتساعها كله على بريه شيوبت ولكنها كانت تنطبق على الوادى حيث كانت توجد بحيرات النطرون، وكان فى نفس هذه المنطقة مدينة صغيرة يسميها Scyathis ومن البدهى أن هذه المدينة الصغيرة لا يمكن

أن توجد إلا فى منطقة تصلح للسكنى ، إذ أن الشرط الأول هو وجود الماء ، ولكنه فى كل هذه المنطقة لا يوجد ماء إلا فى وادى النطرون فقط ولا يوجد بتاتاً فى كل ما حوله . ويذكر أيضاً وجود مدينة فى هذه المنطقة تسمى نتريا وكانت تسمى باللغة المصرية فابيوس أى مدينة النطرون ، ولم تكن نتريا إلا ترجمة لها ، ومن المرجح أن الملح الذى كان يستخرج من البحيرات كان يوضع هناك لكى ينقل فيما بعد إلى ترلوتيس (ترانا) ومنها إلى باقى بلاد مصر .

وفى زمن البطالسة تنبىء الآثار الموجودة فى معبد إدفو أنه كان يسمى « تحت همان » (أى غيط مالح) . وتحت حكم الرومان يقول سترابون (كتاب رقم ١٧ الباب الأول والفقرة ٢٣) الذى زار مصر فى القرن الأول من العصور المسيحية ، أنه كان يسمى « نوم نتريوت » ، وكان به ملاحة مزدوجة تعطى كمية كبيرة جداً من الملح .

ومما لا نزاع فيه أن هذا « النوم » كما هو اسمه كان يشغل مكان وادى النطرون الحالى .

ويرى عمر طوسون فى بحثه عن وادى النطرون أنه كان جزءاً من صحراء الإسقيط الشهيرة التى اشتهرت جداً فى مستهل القرن

الرابع الميلادى حيث استقر فيها الرهبان تحت قيادة الأنبا مكاريوس وخلفائه ، وكانت هناك قرية اسمها « بيامون » ، ويقول « اميلينو » عنها فى كتابه « جغرافية مصر فى العصر القبطى » ان اسم هذه القرية قد احتفظ به المخطوط الموجود فى الفاتيكان والذى يحوى سيرة نقل أجساد التسعة وأربعين شيخا الذين قتلهم البربر فى الإسقيط ، ويظهر أن أجساد هؤلاء القديسين كانت قد وضعت فى مغارة بالقرب من بيامون حيث كانت توجد قلعة كبيرة وفيها مركز للجند الذين عهد إليهم مراقبة الذين كانوا يأتون ليبحثوا عن النطرون وحمايتهم من البربر .

ويضيف « اميلينو » انه كان متأكداً جداً وفقاً للأصول التى ذكرت أن بيامون كانت فى الصحراء وليست بعيدة عن دير القديس مكاريوس ، لأنه عند نقل أجساد التسعة وأربعين شيخا ، هذه العملية قد تمت فى الدير الأقرب إلى المغارة التى كانوا فيها وهو الدير المذكور أخيراً .

منطقة الإسقيط

منطقة الإسقيط تقع على بعد ستة أميال جنوبى جبل نتريا وكانت للقديس مقاما ومستقراً ، وفيها انشئت مستعمرة للتوحدين ويقول اميلينو ، أن هذا الاسم يظهر لأول مرة فى حياة

القديس مكاريوس الكبير - أما فيما يختص بمكانه بالنسبة إلى نتريا يمكننا أن نحدده ، وفى سير حياة القديسين الذين بنوا أديرة يعرف مكانها حاليا ، إما بوجودها أو بآثارها يذكر دائماً أنهم عاشوا فى الإسقيط ، وأن الأديرة التى تسمى باسمائهم قد بنيت فى الأماكن التى كانوا يسكنون فيها، ويرجح اميلينو أن كل الأديرة الحالية والآثار التى نراها اليوم موجودة فى الإسقيط ، وان نتريا لابد أنها كانت تقتصر على الجـــزء من الوادى الذى تشغله البحيرات وأراضى النطرون[1].

وقد سمى وادى النطرون الحالى بالأسماء الآتية : - برية الإسقيط (أى برية النساك) ، برية شيهيت (أى ميزان القلوب)، وادى الرهبان ، وادى الملوك ، وادى هبيب - لكن فى الواقع أن الإسمين الأولين يخصان برية الإسقيط فقط والثلاثة الأخيرة تخص نتريا حيث كان الرهبان يسكنون وقد تركوها تدريجياً إلى الأديرة .

العبادة المسيحية فيه

ان القديس أمون اتخذ من منطقة نتريا المكتظة بالمتوحدين مقامه ، وتعتبر أديرة صحراء النطرون فى موقع مقدس منذ قرون

(١) المرجع السابق .

طويلة من العبادة المسيحية - وليس ما يرجح تأسيسها قبل القرن الثالث أو الرابع - ويزداد على هذه الاهمية التاريخية صـــورة موقعها الشاعرية والاتساع غير المحدود للرمال الجدباء التى تفصلها عن العالم والشمس الساطعة التى تنير وحشتها والسكون والوحدة التى لا تتخللها سوى أفراد البدو أو وصول زوار أو مسافرين - كل هذا مما يحرك فى العابد شريف الإحساســات والعواطف الروحية والزهد والورع ، ولهذا ، كانت العبادة حارة والنسك والتقشف على أشدهما فضلا عن ذلك فإن مؤلفات الآباء بلغت حد الإعجاز حيث لا يشغلهم شاغل .

ويقول مار اسحق المتوحد « السكون يصلح جداً لعمل الله ، ولأجل هذا القديسون قبضوا حواسهم أولا عن العالم وبعد ذلك اهتموا باستعداد القلب لعمل الله الخفى لأنه إن لم يرتبط الجسد أولا بعمل الفضيلة لا يتفاوض الفكر بفلاحة الفضيلة لأن منه يقتنى ذهنا مجموعا وضمير أهادئا وأفكاراً غير مضطربة بمناظر العالم» .

أما عن الوصول إلى الأديرة قديماً فقد روى « بطلر » فى كتـابه صحيفة ٢٩٠ قال :

« لما رغبت لأول مرة فى السفر إلى الأديرة فى ربيع سنة ١٨٨١م أمر الخديوى السلطات بعمل تحريات دقيقة ولكن قيل

أن البدو كانوا فى حالة تحفز عدائية بسبب نزاع مع الجنـــود المصريين ، ولابد أنهم يسلبون أى مسافر يصادفهم فى الصحراء، ويرغمونه على الرجوع ، ولو أنهم عموما لم يكونوا ليهتموا بصفة خاصة بالقتل الذى لا داعى له .

ومن مخاطر الرحلات إلى الأديرة قديماً روى « سوبتشى » أيضاً أنه سرق ونحا من اللصوص بتغيير مفاجىء فى الطريق مما أفسد خطة البدو لإهلاكه ...

أما الآن فإنه فى سهولة ويسر يمكن الوصول إلى أى دير من أديرة وادى النطرون الاربعة الموجـــودة حالياً ، عن طريق اتوبيس الطريق الصحراوى بين اسكندرية ومصر ،وأقـــرب الأديرة هو دير القديس أبو مقار حيث بعد النزول عند الكيلو ٨٨ (من مصر) يكون الدير على مسيرة ساعة بالأقدام ، والأديرة الأخرى يمكن الذهاب إليها سيراً دون كبير عناء من موقف « الرست » فى حوالى الساعتين أو يزيد قليلا ، كما أن سيارات الجيب ، وهى تحت الطلب ، يمكن أن تقطع المسافة من موقف الرست فى الطريق الصحراوى فى أقل من نصف ساعة فى اطمئنان كامل ، وقد تم حديثاً رصف الطريق إلى دير أنبا بيشوى وإلى جوار دير السريان ، ويمكن للسيارات الملاكى الانتقال إلى هذين الديرين رأسا فى غير ما تعب أو مشقة .

مراجع الكتاب

1) Histoire dis Monastères de la Basse Egypte (Amélinean) .
2) Les Actes des Martyrs de l' Eglise Copte (Amélineau) .
3) The Ancient Coptic Churches (Butler A.J.).
4) The Story of the church of Egypt (Butchler).
5) Etude sur le Wadi Natrun (Omar Tousson).
6) La Grande Encyclopedie .
7) Encyclopedia of Religin and Ethics .
8) Les Saints d' Egypte (Cheneau) .
9) The Saints of Egypt O'Leary.

١٠) كتاب صحراء العرب والأديرة الشرقية .
١١) السنكسار .
١٢) تاريخ الكنيسة المتيح القس منسى يوحنا .
١٣) الخريدة النفيسة .
١٤) الثلاثة مقارات لدير السريان .
١٥) الرهبنة القبطية .
١٦) تحفة السائلين .
١٧) مجلة معهد الدراسات القبطية .
١٨) الابصلودية السنوية .

فهرست الكتاب

صحيفة

المقدمة ٣

ملاحظات على المخطوطة القبطية الناقصة ١٠

الفصل الأول : حياته الأولى وانطلاقه للصحراء ١١

(١) نشأته ١١

(٢) عماده وانطلاقه إلى الصحراء وبدء محاربات الشيطان له ١٢

(٣) محاربة الشيطان له ١٤

ا ـ فى مقبرة الوثنيين ١٤

ب ـ عناية الله بالقديس وقصة ظهور قطيع الجاموس ١٧

جـ ـ خيالات الشياطين ١٨

الفصل الثانى : إرشادات القديس ١٩

(١) توجه القديس إلى أنبا باخوميوس وإرشاده الرهبان بالعمل وليس بالكلام ١٩

(٢) إرشاده لليديا المتوحدة ٢٢

صحيفة

الفصل الثالث : تعمق القديس فى العبادة ٢٢

الفصل الرابع : معجزات القديس ٢٥

(١) شفاء قس مريض بالسرطان بعد تعهده بالخروج من الكهنوت ٢٥

(٢) إخراج الروح النجس وشفاء طفل ٢٧

(٣) شفاؤه عذراء ٢٧

(٤) شفاؤه ابن الضبعة ٢٨

(٥) قصة الكأس ٣١

(٦) قصة طبخ الرمل ٣٢

(٧) زيارة القديس للاسكندرية وبصلاته ينزل المطر ٣٤

(٨) شفاء القديس من سم ثعبان وقتله للثعبان ٣٦

الفصل الخامس: طرف من أخباره ٣٨

ا ـ سرقة فلايته وتصرفه مع اللصوص ٣٨

ب ـ صلابة إرادته وهربه من المجد الباطل ٤٠

جـ ـ محـــاربـاته ٤١

صحيفة

الفصل السادس: نفيه ونياحته ٤٣

الفصل السابع: القديس مكاريوس الاسكندرى وتلمذته للقديس أنبا انطونيوس ٤٥

الفصل الثامن: صداقته للقديسين الكبار ٤٨

الفصل التاسع: من تلاميذ القديس ٥١

(١) القديس مرقس ٥١

(٢) القديس بفنوتى ٥٢

الفصل العاشر: نبذة عن وادى النطرون ٥٤

مراجع الكتاب ٦١

الفهرست ٦٢

انتهى تاليف الكتاب وحمد الله لايلتهى ؟

أودع بدار الكتب تحت رقم ٢١٤٨ لسنة ١٩٧٠